المختلفون في أمر « الوحي الفني » يتفقون في شيء واحد، وهو أن هناك حالة أصلح من حالات أخرى للعمل الفني كائناً ما كان من نظم أو تلحين أو تصوير أو تمثيل. فلا يكون الفنان في كل حالة على استعداد واحد للابتكار والإجادة، ولكنه يعرف له حالة موقفة هي عنده أوفق من جميع الحالات

وأكبر همّ الفنان أن يستحضر تلك الحالة إن لم تكن حاضرة. وهنا يختلف أصحاب الفنون كل مختلف في وسائل الاستحضار حسبما فطروا عليه وتعودوه. فمنهم من يستعين بشرب القهوة ومنهم من يستعين بالتدخين ومنهم من يتناول بعض المسكرات ومنهم من يمشي مسافات أو يتحرى أوقات البكور أو غيرها من الأوقات، وقد يستعين الواحد بأكثر من وسيلة حسبما يعرض له من غير المزاج

وليس من الضروري أن يضمن الفنان هذه الحالة متى ضمن الوسيلة. فقد توجد القهوة أو توجد المسافات الطويلة ولا يوجد الوحي المقصود. إذ من خصائص الفنون الأولى أنها لا تتقيد ببرنامج ولا تخضع للنظام « الآلي » الذي تخضع له الصناعات اليدوية وما شابهها. ففي ساعة تكتب عشر صفحات وفي عشرة أيام لا تكتب صفحة واحدة، وأنت لا تستطيع أن

بقلم الدكتور عباس محمود العقاد

نجزم متى تكون تلك الساعة المباركة قبلها بفترة وجيزة . وان كنت تستطيع أن تلجأ إلى جميع الوسائل في كل حين

ويجب أن أتحدث هنا عن تجربتي الخاصة لأن التجربة الخاصة في هذه المسائل هي كل شيء ، وهي كذلك كل شيء حيث لا توجد القواعد المقررة التي يتفق فيها جميع الناس

فمعظم ما ينظمه كاتب هذه السطور من الشعر إنما ينظمه باقتراح من عند نفسه لا يتقيد فيه بموعد ولا غاية . فان لم يتيسر نظمه الساعة فليرجأ إلى ساعة أخرى في يوم آخر ، ولا داعي للعجلة أو للفراغ من النظم في موعد مرسوم

ولكن يتفق بعض الأحيان أن تأتي المناسبة التي أتلقى فيها اقتراحاً بنظم قصيدة مطلوبة لموعد معلوم . فماذا أصنع في هذه الحال ؟ لم أستطع مرة واحدة أن أعد وعداً جازماً بنظم القصيدة في موعدها . ولكني جريت على أن استمهل المقترح أياماً قبل الجزم بالقبول . ثم أبدأ النظم على اعتبار أني لم أتقيد باجابة ولا بموعد ، ويحدث في جميع هذه الاحوال أن تتم القصيدة قبل أن أجيب بالقبول ، وأن تتم أحياناً في يوم واحد أو ساعات قليلة ، ولكني مع تكرار هذه التجربة عشر مرات أو أكثر من ذلك لا أزال أشعر بالحاجة الى تلك الحيطة وذلك الاستمهال ، ريثما أبدأ التجربة وأنا غير مقيد بيوم ولا متوجس من الخلف ولو على فرض بعيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

على أن خير الحالات جميعاً ـ بل الحالة التي لا غنى عنها لفنان ـ أن تكون النفس في حالة « حركة » ولا تكون في حالة ركود أو جمود

ومعنى الحركة أن تجيش النفس بعاطفة من العواطف ، أو تهتز لشعور غالب كالحب أو كالحزن أو كالاشفاق أو كالغضب أو كالتفتح بالعاطفة والاستعداد للشعور بما يشعر به من حولها أو ما يلوح على ما حولها من المناظر والاشياء

والشرط في هذه الحالة ألا تكون العاطفة جامحة جائحة ، لان النفس في حالة الجموح الجائح لا تملك القريحة المنشئة ولا تزال مستغرقة فيما هي فيه

وانما مزية الفنان التي يكون بها منشئاً مبتكراً هي كونه شخصين اثنين لا شخصاً واحداً كسائر الاشخاص

وهو شخصان اثنان إذ يكون هناك شخص يشعر ويعطف ، وشخص يراقب ويقيد ما

يراقبه ويخرجه فى الصورة الفنية التى هو بها خبير

ولن يكون الفنان هكذا إلا وفي العاطفة هدوء ما يسمح بالمراقبة والتأمل والمقارنة واطلاق الخيال فى ابتداع الصور والاماثيل . أما إذ تجمح العاطفة وتطغى فهي تستغرق كل شىء ولا تدع إلى جانبها موضعاً « للشخص الآخر » المراقب المبتكر « المتفرج » على الحياة وفي مقدمتها حياته

فاذا وجدت « الحركة النفسية » التى تمنع الركود وتمنع الاستغراق في وقت واحد ، فتلك خير حالات الوحى والخلق والتجويد

وإذا لم توجد في الوقت الحاضر فينبغى أن تكون قد وجدت قبل ذلك في وقت من الاوقات ، وأن يكون عند الفنان قدرة الخيال وقدرة الانفعال لاستئناف تلك الحالة السابقة وإعادتها إلى الحياة كما تعود المشاهد والتجارب فى الاحلام ، وإذا بلغ من قدرة الخيال وقدرة الانفعال أن تخلقا الشعور خلقاً بغير تجربة سابقة إلا ما كان من مراقبة الناس أو القراءة عنهم، فتلك نادرة لا تطرد ، ولا تعهد على كثرة ووفرة إلا فى الافذاذ المعدودين بين أصحاب الفنون

لكن الخيال والانفعال شرطان لازمان في كل فنان يخلق ويجيد ، ولازمة من لوازم الخيال والانفعال تلك الملكة التي تملك « تداعى الخواطر » أو الانتقال من فكرة الى فكرة ومن شعور إلى شعور ومن موقف الى موقف حسبما يكون بينها من المشابهة والمقاربة فى قريحة الفنان ، ونقول « قريحة الفنان » لان القرائح الاخرى لا تفطن لتلك المشابهات ولا ترى العلاقات الدقيقة التى تربط كل واحدة منها بما بعدها ثم تثب بالذهن من أبعد الاشياء الى ابعدها في الظاهر على سلسلة متلاحقة متشابكة لا فجوة فيها ولا منقطع بينها ، وهى عند الآخرين مملوءة بالفجوات والفروق لا تصلح للسير عليها خطوة أو خطوتين

تتحدث ـ مثلاً ـ الى رجل من أصحاب السليقة الفنية عن برج « ايفل » فلا تنقضى لحة حتى يعود فيحدثك عن « لغة الاسبرانتو » التي توحد بين جميع اللغات . فلا تحسبه مجنوناً أو مخبولا شارد الفكر مولعاً بالمفارقات ينتقل بين الاحاديث بلا مناسبة ولا استطراد . بل حاول أن تتبعه فى تفكيره و « تداعى خواطره » تجد أن برج « ايفل » قد ذكره على الفور برجاً آخر مشهوراً في التاريخ القديم وهو برج بابل ، وأن برج بابل قد ذكره ما قيل عن تبلبل الالسنة واختلاف اللغات ، وأن اختلاف اللغات قد ذكره بسعى طلاب السلام

والوفاق وما اخترعوه من أسباب للتقريب والتأليف بين الشعوب وفي مقدمتها لغة « الاسبرانتو » . . وهكذا يطفر ذهن الفنان بين المناسبات ، ويتهيأ له من ثم اطراد الخواطر والفيض بالافكار وهو ما يسمونه الخصوبة وسخاء القريحة ، ويتوقف عليه كثير من « وحى الفنون »

والخصوبة في القرائح كالخصوبة في البقاع من حيث المفاضلة والتقويم . فلا يعيب الذهن أن يكون مكثراً ولا يزكي نتاجه أن ينتج باقلال وادلال : كالبستان لا يعيبه أن يسخو بالثمر ولا يزكيه الشُّح وطول الانتظار . وانما العبرة بالمذاق والطيب لا بالعدد والموسم . ورب مكثر يساوى الفاً من المقلين لأن النفاسة ليست رهينة بالقلة على إطلاقها ، ولكنها رهينة بالقلة التى ليس لها مثيل

* * *

وغنى عن القول أن الذهن المستريح أقدر على الوحى من الذهن المتعب المكدود . وهذه هى القاعدة فى اكثر الاحوال وأدناها الى المعهود والمعقول . أما الشذوذ فهو أن الذهن المكدود ليفوق أحياناً الذهن الهادىء المستريح ، لانه « يتنبه » فينطلق كما ينطلق المتعب الفاتر بباعث من المنبهات والمحرضات الصناعية . ومثله فى ذلك كمثل الساهد قد طال عليه السهاد حتى نفض عنه غبار النهوم ونشط إلى اليقظة الواعية كأنه استوفى حظه من الراحة وزهد في الرقاد باختياره ورضاه . فهو في هذه اليقظة أقدر على الوعى ممن تيقظ بعد نوم طويل وراحة قريرة ولما يستجمع نشاطه ودواعى التفاته . وهى حالة لا يقاس عليها ولا يعرف لها ضابط مقدور ، ولكنها موجودة حاصلة فهى حقيقة بالتسجيل خليقة ألا تفوت الناظر في هذا الموضوع

و بعد هذا وذاك : لماذا يحتاج الفنّان الى « الوحى » ولا يحتاج اليه العالم إلا حين يشبه الفنان فى الاختراع والاستنباط ؟ الجواب الوجيز عن ذلك أن العلم المقرر له طريقة واحدة لصنع ما يصنع . أما الفن فله إذا أراد التعبير عن معنى واحد الف طريقة لا تحصى ولا يتلاقى فيها الانسان الواحد وقتين مختلفين . واختيار الطريقة الفضلى والحالة النفسية التى تواتيها وتتهيأ لها هو مناط الوحى وهو عماد الفنون

عباس محمود العقاد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com